سورة المؤمنون(١)

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ① ﴾

لما قال الحق - تبارك وتعالى - فى الآية قبل السابقة من سورة الحج ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ⑦⑦ ﴾ [الحج] ولعلَّ تفيد الرجاء ، أراد سبحانه أن يؤكد هنا على فلاح المؤمنين فقال : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ① ﴾ [المؤمنون] وأن الرجاء من الله واقع ومؤكد ، لذلك جاء بأداة التحقيق ﴿ قَدْ ﴾ التى تفيد تحقُّق وقوع الفعل ، وهكذا تنسجم بداية سورة (المؤمنون) مع نهاية سورة (الحج) .

وقوله تعالى هناك ﴿ تُفْلِحُونَ ⑦⑦ ﴾ [الحج] وهنا ﴿ أَفْلَحَ ① ﴾ [المؤمنون] مادة (فلح) مأخوذة من فلاحة الأرض ، والفَلْح هو الشق ؛ لذلك قالوا : إن الحديد بالحديد يفلح ، وشَقُّ الأرض : إهاجتها وإثارتها بالحرث ، وهذه العملية هى أساس الزرع ، ومن هنا سُمِّى الزرع حَرْثاً فى قوله سبحانه : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ

(١) سورة المؤمنون ، هى السورة رقم (٢٣) فى ترتيب المصحف الشريف . عدد آياتها ١١٨ آية ، وهى سورة مكية كلها فى قول الجميع . قاله القرطبى فى تفسيره (٦/٤٦٣٥) . وهى السورة رقم ٧٣ فى ترتيب النزول ، نزلت بعد سورة الأنبياء وقبل سورة السجدة . قاله ابن الضريس فى فضائل القرآن فيما نقله عنه السيوطى فى « الإتقان » (١/٢٧) .

الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ (٢٠٤) وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ (٢٠٥)﴾ [البقرة]

ومعنى أفلح : فاز بأقصى ما تتطلع إليه النفس من خير .

والأرض حين تحرثها تكون خالية ليس فيها شيء يُهْلَك ، إذن : المراد بالحرث هنا الزرع الناتج عن عملية الحرث ، والتي لا بُدَّ منها كي تتم عملية الزراعة ؛ لأنك بالحرث تثير التربة ليتخللها الهواء ، فيزيد من خصوبتها وصلاحها لاستقبال البذرة ، وسبق أن تحدثنا عن عملية الإنبات ، وكيف تتم ، وأن النبات يتغذى على فَلْقتى البذرة إلى أن يصبح له جذر قوى يستطيع أن يمتصّ من التربة ، فإن ألقيتَ البذرة فى أرض صماء غير مثارة فإن الجذر يجد صعوبة فى اختراق التربة والامتصاص منها .

فالحق - تبارك وتعالى - يعطينا صورة من واقعنا المشاهد ، ويستعير من فلاحة الأرض ليعبر عن فلاح المؤمن وفوزه بالنعيم المقيم فى الآخرة ، فالفلاح يحرث أرضه ويسقيها ويرعاها فتعطيه الحبة بسبعمائة حبة ، وهكذا سيكون الجزاء فى الآخرة : ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦١)﴾ [البقرة]

فإذا كانت الأرض المخلوقة لله عز وجل تعطى كل هذا العطاء ، فما بالك بعطاء مباشر من خالقك وخالق الأرض التى تعطيك ؟ وكما أن الفلاح إذا تعب واجتهد زاد محصوله ، كذلك المؤمن كلما تعب فى العبادة واجتهد زاد ثوابه وتضاعف جزاؤه فى الآخرة .

﴿ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) ﴾[1]

كان أول ظاهرية الفلاح فى الصلاة ، وما يزال الحديث عنها موصولاً بما قاله ربنا فى الآيات السابقة : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ (٧٧) ﴾ [الحج] وقال بعدها : ﴿ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ .. (٧٨) ﴾ [الحج]

وهنا جعل أول وصف للمؤمنين الذين أفلحوا ﴿ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) ﴾ [المؤمنون] فلم يقل مثلاً : مؤدون ؛ لأن أمر أداء الصلاة فى حق المؤمنين مفروغ منه ، العبرة هنا بالهيئة والكيفية ، العبرة بالخشوع والخضوع وسكينة القلب وطمأنينته واستحضار الله الذى تقف بين يديه .

كما تقول لولدك : اجلس أمام المعلم باهتمام ، واستمع إليه بإنصات ، فأنت لا توصيه بالذهاب إلى المدرسة أو حضور الدرس ، فهذا أمر مفروغ منه ؛ لذلك تهتم بجوهر الموضوع والحالة التى ينبغى أن يكون عليها .

والخشوع أن يكون القلب مطمئناً ساكناً فى مهمته هذه ، فلا ينشغل بشىء آخر غير الصلاة ؛ لأن الله ما جعل لرجل من قلبين فى جوفه ، وما دام فى حضرة ربه عز وجل فلا ينبغى أن ينشغل بسواه ، حتى إن بعض العارفين لمعنى الخشوع يقول : إن الذى

---

(١) سبب نزول الآية : أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن محمد ابن سيرين قال : « كان أصحاب رسول الله ﷺ يرفعون أبصارهم إلى السماء فى الصلاة ويلتفتون يميناً وشمالاً . فأنزل الله ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) ﴾ [المؤمنون] فقالوا برؤوسهم ، فلم يرفعوا أبصارهم بعد ذلك فى الصلاة ، ولم يلتفتوا يميناً ولا شمالاً » [أورده السيوطى فى الدر المنثور ٦/ ٨٣] .

يتعمد معرفة مَنْ على يمينه أو مَنْ على يساره فى الصف تبطل صلاته[١] .

ولما دخل سيدنا عمر - رضى الله عنه - على رجل يصلى ويعبث بلحيته ، فضربه على يده وقال : لو خشع قلبك لخشعتْ جوارحك[٢]. ذلك لأن الجوارح تستمد طاقتها من القلب ومن الدم الذى يضخه فيها ، فلو شغل القلب عن الجوارح ما تحركت .

لذلك لما سأل أحد الفقهاء صوفياً : ما حكم مَنْ سها فى صلاته ؟ قال : حكمه عندنا أم عندكم ؟ قال : ألنا عند ولكم عند ؟ قال : نعم ، عند الفقهاء مَنْ يسهو فى الصلاة يجبره سجود السهو ، أما عندنا فمَنْ يسهو فى الصلاة نقتله . يعني مسألة كبيرة .

ثم ألاَ يستحق منك ربك وخالقك أن تتفرغ له سبحانه على الأقل وقت صلاتك ، وهى خمس دقائق فى كل وقت من الأوقات الخمسة ، وقد تركك باقى الوقت تفعل ما تشاء ؟ أتستكثر على ربك أن تُفرِّغ له قلبك ، وأن تستحضره سبحانه ، وهذه العملية فى صالحك أنت قبل كل شىء ، فى صالحك أن تكون فى جلوة مع ربك تستمد منه سبحانه الطاقة والمعونة ، وتتعرض لنفحاته وإشراقاته وتقتبس من أنواره وأسراره ؟

ومن حرص أهل التقوى على سلامة الصلاة وتمامها قال أحدهم

(١) قاله معاذ بن جبل رضى الله عنه فيما ذكره عنه أبو محمد عبد الحق الإشبيلي فى « الصلاة والتهجد » (ص ١٩٣) .

(٢) ذكر أبو محمد عبد الحق هذا الأثر فى كتاب « الصلاة والتهجد » (ص ١٩٨) بتحقيقى - طبعة دار الوفاء المنصورة ، ولكن عزاه للحسن البصرى ، وذكر له أيضاً أن الحسن نظر يوماً إلى رجل يعبث بالحصباء فى الصلاة وهو يقول : اللهم زوِّجنى من الحور العين ، فقال له : بئس الخاطب أنت ، تخطب الحور العين وأنت تعبث بالحصباء .